

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها
مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول
الطب على القياس والتجربة فهو اذا علم وعمل وعليه قول ابن
سينا في مقدمة ارجوزته المشهورة

الطب حفظ صحة بر مرض في بدن من سبب عنه عرض
قسمته الأولى لعلم وعمل والعلم في ثلاثة قد اكتمل
سبع طبيعات من الأمور وستة وكماها ضروري
ثم ثلاث سُطرت في الكتب من مرض وعرض وسبب

وبناء عليه يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور
الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض
واعراضها واسبابها . واما عمله فيراد به مزاولة صناعة العلاج
اِما بالجراحة واما بالدواء وتدير الغذاء وعليه قول الشيخ
الرئيس في ارجوزته المذكورة

وعملُ الطبِّ على قسمين - فواحدٌ يُعملُ باليدين -
 وغيره يُعملُ بالدواءِ وما يقدِّمُ من الغذاءِ
 أمَّا الامور الطبيعية السبعة فهي الاركان والمزاج والأخلاق
 والاعضاء والقوى والارواح والافعال وكل منها احكامٌ وخصائص
 يطول الكلام عليها . قالوا ان الاجسام باسرها مركبة من
 الهيولى والصورة . وان الهيولى والعنصر والمادة والأسطقس والاصل
 والركن والموضوع متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار لان الشيء الذي
 يتكون منه شيء آخر لا بد وان يكون قابلاً لصورته فبااعتبار
 كونه قابلاً للصورة مطلقاً يُسمى هيولى وباعتبار كونه قابلاً
 لصورة معينة يُسمى مادةً وباعتبار كونه الصورة
 حاصلةً فيه بالفعل يسمى موضوعاً وباعتبار كونه جزءاً للمركب
 يُسمى ركناً وباعتبار كونه ينشئ منه التركيب يسمى عنصراً
 وباعتبار كونه ينتهي اليه التحليل فيكون اصغر جزء في المركب
 يُسمى اسطقساً وباعتبار كون ذلك المركب مأخوذاً منه
 يُسمى اصلاً فالركن ابسط شيء في المركب ويقال على
 الاجزاء الاولى لبدن الانسان وهي مكونة من العناصر الاربعة على ما يؤخذ
 بالاستقراء وهي النار والماء والهواء والتراب . وقالوا ان البدن
 مؤلف من الاعضاء الآلية وهذه الاعضاء تتكون من الدم

وهو من الغذاء وهو اما نبات او حيوان وهو ايضا من النبات والنبات انما يقوم بالماء والهواء والتراب وحرارة الشمس فمرجع التكوين الي العناصر المذكورة . والنار بالطبع حارة يابسة والماء رطب بارد والارض رطبة يابسة والهواء رطب حار * واما الامزجة فهي كيفيات متشابهة تحدث من تفاعل الاركان بقواها المتضادة وهي على ثنائي حالات وكلُّ مقابلٍ ينقسم الى ثمانية اقسام فالخارجة عن الاعتدال الطبي اربعة وستون والمعتدل الحقيقي الذي لا وجود له واحد فالجملة ثلاثة وسبعون ولهم في بيان ذلك كلام طويل لا محل لها الآن * واما الاخلاط فهي اجسام رطبة سيالة تنولد من الغذاء وهي الدم والصفراء والباغم والسوداء وذلك ان الغذاء متى انهضم في المعدة يستحيل الى الكيوس وينجذب الصافي منه الى الكبد فينطبخ فيه فيحصل فيه شيء كالرغوة وشي كالرسوب وشي فنج فالرغوة هي الصفراء والرسوب هي السوداء والشئ الفنج هو الباغم واما المصفى من هذه الجملة نضجاً فهو الدم * واما الاعضاء فهي الاجسام المتولدة من اول مزاج الاخلاط وتنتقسم الى رئيسية وهي القلب وفيه مبدأ قوة الحياة والدماع وفيه مبدأ قوة الحس والحركة والكبد وفيه مبدأ التغذية * واما القوى فهي اما

طبيعية محلها الكبد او حيوانية محلها القلب او نفسانية محلها
الدماغ ولكل منها اقسام ليس من غرضنا بيانها الآن ، واما
الارواح فهي اجسام تحدث عن بخارية الاخلاط ولطافتها
وتنقسم الى طبيعية وهي التي تنفذ من الكبد في العروق الغير
الضواري (الاوردة) الى جميع البدن والى حيوانية وهي التي
تنفذ من القلب في العروق الضواري (الشرايين) الى جميع البدن
والى نفسانية وهي التي تنفذ من الدماغ في العصب الى
اقاصي البدن

واما السنة الضرورية فهي (١) الهواة و (٢) الغذاء و (٣)
النوم واليقظة و (٤) الحركة والسكون و (٥) الاستفراغ و (٦)
الأحداث النفسانية . وكل ذلك يستلزم معرفةً مدققةً للتوصل
الى معرفة حقيقة المرض واسبابه واعراضه وبالتالي الى معرفة
علاجه . وقالوا في حد المرض انه حالة للبدن خارجة عن المجرى
الطبيعي معها ينال الافعال الضرر بلا واسطة وان الاعراض
علامات يعرف بها الخلل الحادث ومحلّه من البدن وسببها
انفعال الاعضاء بما يجري فيها على غير النظام الطبيعي لان
الطبيعة تحاول اصلاح هذا الخلل وتغالب قواها قواه فاما ان
تقهره فتحث الصحة واما ان يقهرها فتحث الموت فالطبيب

النظامي إذاً إنما هو خادم الطبيعة التي تحذو لأفعال الطبيعة
حذوها فيجب عليه ان يقويها متى وجدها ناهضة بشفاء مرض
او يتركها على حالها وان يقويها ويقابل مقاومتها بما يضادّه متى
وجدتها متقصرة وان وجدها عادمة آله او مسلك هياً ذلك
لها مثل رد خلع وتسوية كسر وفتح عرق كل ذلك بحسب
الامكان . ووضعوا للمعالجة بالدواء قوانين هي اولاً اختيار
كيفية الدواء من حرارته وبرودته ورطوبته ويسه وذلك
بعد معرفة نوع المرض هل هو حار او بارد او غير ذلك
ليعالج بالصد وتحتفظ الصحة بالمثل وثانياً اختيار وزنه هل يؤخذ
منه كثيراً او قليلاً وثالثاً وقت استعماله والوقت الحاضر من
اوقات الفصول واوقات المرض وهي اربعة الابتداء والتزايد
والوقوف والانحطاط فيعطيه ما يناسبه في تلك الاوقات

هذه هي خلاصة ما ذهب اليه الحكماء في الطب القديم
اخذتها عن عدّة من كتبهم المعتبرة ولم اتصدّ لبيان ما بنوا
عليها من الآراء والمذاهب وما توسعوا فيها من الشرح والتفصيل
وما تحرّروا من المباحث والمطالب وانما قصدت الإشارة الى
الاصول التي اتخذوها اساساً لمعارفهم لتسهيل المقابلة بينها وبين
الاصول المتخذة الآن فتدفع مزاعم الذين يهرفون بما لا يعرفون

ويكتفون عنهم وهم لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون ويعلم ان
الطب انما وصل الى حالته الحاضرة من الاتقان واتساع
المدى وصحة المبدأ بعد ان تدرج في مراتب الارتقاء
من طور الى طور حتى وصل اليانا في هذا الطور وقد كاد
يبلغ ذروة الكمال

وقد مرَّ بك ان القدماء بنوا مذهبهم في تركيب بدن
الانسان من الاركان الاربعة على تعليم بقراط مستدلاً على
ذلك بان العناصر اربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب وان
هذا المذهب بقي شائعاً معولاً عليه حتى الى امدٍ قريب وذلك
لانهم توهموا ان العناصر الاربعة انما هي بسيطة ولم يكن لديهم
من الوسائط ما يبتدون به الى معرفة حقيقتها الا الحدس
والظن والانسان مطبوع على حب التقليد والتخدي فلم تكن
مخالفة هذا المذهب بالامر الهين طالما لم يثبت تمييزه برهان
التجربة والمشاهدة . على ان الكيماويين من العرب قد مهدوا
السبيل لمعرفة تركيب العناصر بما اجروا من التجارب لتحويل
المعادن الى فضة وذهب واقتفى آثارهم بذلك بعض الرهبان
كروجر باكون واول ما اهندوا اليه تحويل الزنجفر الى الزئبق
والكبريت ثم كشف بريستلي الانكليزي وشيلي الاسوجي

ولافوازيباي الفرنسي اوي غاز الأوكسجن سنة ١٩٧٤ سنة ١٧٧٥
وكشف كافنديش الانكليزي غاز الهيدروجن سنة ١٧٦٦
وكشف الدكتور دثرفرد النيتروجن سنة ١٧٧٢ وسماه
لافوازيباي ازوتاً لعدم صلاحيته للحياة فثبت كون الماء مركباً
من الهيدورجن والأوكسجن وكون الهواء مركباً من الاوكسجن
والازوت وغيرها وان النار ظاهرة تتولد من اتحاد مادة كربونية
بغاز الأوكسجن في حالة الاشغال وان التراب مركب من
عناصر كثيرة يطول شرحها

وكان التشريح محرماً على القدماء فلم يكن من سبيل لمعرفة
منافع الاعضاء الا بقدر ما توصل اليه بقراط بجده الصائب
وذكائه الغريب من النظر الى الحيوانات التي كانت تقدم
في هياكلهم ضحايا لآلهتهم واول من مارس التشريح من القدماء
هيروفيلوس الخليدوني في مدينة قوس فهاج اهلها عليه حتى
اضطروه الى الهرب فجاؤ الى الاسكندرية واشتغل في
مدرستها بتشريح الحيوانات وجثث المحكوم عليهم بالاعدام
وآتهم بتشريح الاحياء وتبعه ايرازستراتوس من مدينة قيدوس
فحققتا اشياء كثيرة مما لم تصل اليه معرفة الذين تقدموهما
واخذ عنهما جالينوس واشتغل ايضاً بالتشريح في مدرسة

الاسكندرية وآف الكتب التي اهدى بها علماء العرب وتوسع كثيراً بمباحثه الا انه تابع ارسطو بزعمه ان الدم ينفذ من احد بطيني القلب الى الآخر بواسطة بطين ثالث سماه دهايزا وربما حدها الى هذا الزعم مشاهدته في اجنة الحيوانات اللبونة ثقباً بين البطينين لان الدم الشرياني يختلط بالوريدي في الاجنة وهذا الثقب يسد بعد الولادة . وقال ان الشرايين تحمل الروح والاوردة تحمل الدم . ومن يتأمل في مؤلفات اطباء العرب يرى ان معارفهم بالتشريح لم تكن قاصرة الى الحد الذي توهمه بعضهم بحجة ان التشريح كان محرماً عليهم . قالوا في تشريح القلب ما نصه " اما القلب فانه جسم مخروطي كهيئة الصنوبر قاعدته وسط الصدر ورأسه الى جانب اليسار وهو احمر ماني مركب من اللحم والليف والغشاء الصلب (وهو الصمامات) المتسج من ثلاثة انواع من الليف الطويل الجاذب والعريض الدافع والمورب الماسك ليكون له اصناف الحركات وفنون الافعال . وهو منبع الحرارة الغريزية وله بطنان احدهما اليمين وهو مملوء بالدم الكثير والروح القليل وله مجاري يجري فيها من القلب الى الرئة دم الغذاء ومن الرئة الى القلب الهواء والثاني الايسر وهو مملوء بالروح الكثير والدم القليل وهو منبت

الشرايين . ومن ذلك يعلم ان اطباء العرب لم يبعدوا كثيراً عن معرفة حقيقة دورة الدم . فلو ابيح لهم اجراء التجارب على الحيوانات حبة كما فعل هرفي في القرن السادس عشر لما قصرواعن مداه ومع ذلك فقد عرفوا ان منفعة الرئتين التروييح وهو عندهم نفخ البخار الداخلي (الحامض الكربونيك) وجذب النسيم اليه (وهو الهواء النقي المشتمل على الأوكسجن) . ومن ذلك يعلم انهم حوّموا على الحقيقة بالحدس الصائب . وقالوا ان الدم اصل في تكوين الجسم الحيواني وان تغذية جميع الاعضاء انما تقوم به بحيث يتناول كل جزء منه ما يماثلهُ ويصلح لان يتشبه به فيحصل التركيب والافراز ونتيجة ذلك النماء وطرح الفضول . وعرفوا الاعصاب وعددها ومنابتها من الدماغ والنخاع الفقري وانها تورد الحس وتصدر الحركة . وقيل ان جالينوس عرف ذلك بالتجربة حيث قطع في مواضع من النخاع الفقري طولاً وعرضاً كما فعل شارل بل في القرن الاخير فتتحقق مصدر الحس والحركة في العصب الواحد . وفيما تقدم كفاية لتنفيذ مناجم الدين يقولون ان علماء العرب كانوا بعيدين عن الحقائق العلمية بمراحل وانهم لم يبتدعوا رأياً ولم يستنبطوا امراً

ولو عرفوا ليلي اقرّوا بفضلها وقالوا ياني في الشناء مُقَصِّرٌ